(١٦)

الإسلام
سراج الفطرة وطريق الإنسان

حديث الجمعة

٢٠ جمادى الآخرة ١٣٨٠ هـ - ٩ ديسمبر ١٩٦٠ م

أشهد أنه المعروف لا وصف له. أشهد أنه الموجود لا عدم له. أشهد أنه المشهود لا غيبة له أشهد أنه الحي لا موت له. أشهد أنه القيوم لا انقطاع له. أشهد أنه المعلوم لا جهل له. أشهد أنه الموصوف بكل وصف، لا يحدده وصف ولا تقيده صفة. أشهد أنه لا إله إلا الله وأشهد أن عبده قديم بقدم الرب فيه، وأشهد أن الموصوف بالعبد والرب معنى من معانيه.

لا إله غيره ولا معبود سواه. ما تألَّه فيه إلا وصف من أوصافه ومعنى من معانيه. وما تنزه فيه إلا حقٌّ من حقائقه ومبنى من مبانيه. وما ظهر منه إلا صفة من صفاته وحضرة من حضراته.

علم الإنسان كيف يظهر وكيف يبين، كما علمه كيف يرتقي وكيف يختفي. علَّم الإنسان كيف يتعبد، وكيف يتأله، وكيف يشرق، وكيف يتكنز، وكيف يتخلق، وكيف يتحقق، وكيف يعلم، وكيف يجهل، كيف يقرأ وكيف ينسى ما قرأ، كيف يجهل ما يجب أن يجهل، وكيف يتجاهل عما به يعلم. علمه كيف يعلم ومتى يتعالم ومتى يتجاهل، كما علمه كيف يعمل وكيف يستسلم، وكيف يقوى وكيف يضعف، كيف يرضى وكيف يغضب، كما علمه متى بذلك يكون، ومتى بشيء من ذلك لا يكون، كما علمه كيف يتعدد وكيف يتوحد، كيف يظهر فردا، وكيف يظهر مجتمعا، وكيف يتطور من فرد إلى مجتمع، ومن مجتمع إلى فرد.

جعل للإنسان فيه كل أوصافه وكل معانيه، وجعل الإنسان منه هو الإنسان فيه. كله من أوصافه وكله من معانيه. وألبسه غلاف الكون من مجاليه.

هذا ما جاء به الدين في تأسيسه بأزمانه ومؤسسيه، وهذا ما جمعه الإسلام وأبرزه للناس، وجدَّده في الناس، وأحياه في الناس، وأقامه في الناس بالناس بكل أحواله ومعانيه، برسوله وصحبه وآله ومبانيه. ويجدده ليظهره في رسالة الروح بأجلى معانيه.

إن الإسلام كحقيقة فيه فطرة، وفيه عقيدة، وفيه مجتمع، وفيه إنسان، وهو إذ يعالج أمر الفطرة إنما يعالجها بالفلسفة لطلب الحقيقة، وطلب المعرفة بالعلوم الاجتماعية، وبالعلوم الكونية، وبالعلوم الروحية على مختلف ألوانها وأسمائها ومواضيعها وأطوار إبرازها، وكشفها وتعميمها بواقع فطرة الحياة.

والإنسان في هذا كله هو الكائن الفطري، هو الكائن الشيئي، هو الكائن المادي، هو الكائن الترابي، هو الكائن الوقتي، هو الكائن البدئي، هو الكائن المحدث بألوانه في أبدانه، هو الكائن الأولي لمبناه، والكائن الروحي لمعناه، وهو في الوقت نفسه نهايات كل هذه البدايات واجتماعها. يبدأ بها ويرتقي فيها ثم يجمعها فتتجمع ثم يرتقي بجمعها فيعرج فيها وترتقي فيه فيكونها وتكونه. يجمع بينها فيه على تناقضها، ويمتد ويتشعب بها على وحدته، يفرق نفسه ويجمع نفسه، ويباين بين أبعاضه، ويتقلب في صفاته، يجمعها فيه ويوحدها به ويتوحد معها، ويتوحدها وتتوحده، يقوم شيطانا ويقوم رحمانا، يقوم وجها ظاهرا، ويقوم غيبا لا يدرك وإلها لا يوصف، يقوم ربا ويقوم عبدًا، ويقوم روحًا، ويقوم نورا، ويقوم ظلاما، ويقوم سرا، ويقوم جهرا، ويقوم بيانا، ويقوم كتمانا. يقوم على ما هو، ويقوم علما على معناه على ما هو.. فهو هو.. وهو هو.. وهو فيه، إنما هو هو ما عرفه إلا هو.. وما عُرف إلا له.

إن الإنسان في قانون الفطرة هو ثمرة الفطرة، وهو الفطرة، وهو ما وراء الفطرة. وإن الإنسان في الفطرة هو قانونها. وكما هو قانون الفطرة هو ذات الفطرة، وطاقة الفطرة، وعجز الفطرة، وظهور الفطرة، وغيب الفطرة.

هذا هو الإسلام في الفطرة أو الفطرة في الإسلام أو الإسلام دينا للفطرة أعطيته والتزمته. أما الإسلام عقيدة وكتابا، والإسلام مجتمعا مظلما أو مشرقا، فهذا أمر آخر، وشأن آخر، ووعي آخر، وعلم آخر، وقيام آخر.

إن الإسلام في طرفه الآخر من الفطرة بتطبيق عقائده الفطرية هو مجتمع فطري، وبتطبيق عقائده الكتابية هو مجتمع كتابي.. مجتمع يجمع طبقاته، ويتوحد في ذاته، ويجتمع على نواته، وينتشر منها في دوائر تجمعاته. يتزايد في حلقاته، ويتوجه إلى بؤرة ذاته، وينتشر من بؤرة ذاته في دوائر امتداده ومعارج تنزلاته، وحيواته، وعوالمه، ومنشئاته من حقه وخلقه تلقائيا دون تدبير أو توجيه أو تبليغ إلى مجتمع مظلم مادي أو مجتمع مشرق نوراني.

إن الإسلام كمجتمع فطري، أو المجتمع الفطري كمجتمع إنما ينظم نفسه بنفسه في ظل ما هدي به في غريزته صِدِّيقا لما وعى مما حُمل إليه من عقله فاروقا فيما أمر به من غريزة حرصه على الحياة، مؤمنا لفطرة الواقع في متابعاته، آمّا باجتهاد مفرداته، مُكبرا لله على نفسه بعجزه، شاكرا النعمة من الله في نفسه بتذوقه، طالبا الله في فطرته بعقله واستقامته وصفائه.

إن الإسلام إنسان ومجتمع، إنما هو مظهر الإسلام فطرة في نهايات الجنس على صلاحية من الفطرة بآدميته وقيام إنسانيته. والإسلام مجتمع مثالي، لا يكون مظهرا للإسلام فطرة وللجنس رسالة ما لم يدرك فيه وينتشر به وينتشر عنه ويقوم عليه الإسلام عقيدة. فبالعقيدة تسارع عوامل الفطرة بإنتاج ثمارها فيه. فعقائد الإسلام كتابا هي من قوانين الفطرة قياما.

إننا في جماعتنا هذه وفي قيامنا هذا، إنما يشغلنا، إنما نعمل، إنما نتواصى، إنما نتذاكر بالإسلام في دائرة العقيدة. أما الإسلام في دائرة الفطرة فهو غني عن فعل الخلق لقيام الخلق بالخالق وقيام الخالق بالخلق، قياما كفاتا لا وسيط فيه ولا وسيلة فيه ولا عميل فيه. الحقيقة فيه أقرب إلى الناس، وإلى نفوس الناس، وإلى قيام الناس، وإلى ذوات الناس، وإلى عقول الناس، أقرب إليهم من حبل الوريد بفطرتهم، نامية أو ضامرة بكسبهم أو اكتسابهم.

لا سلطان لمخلوق على مخلوق، ولا سلطان لحقيقة على حقيقة، ولا سلطان لحق على حق. لا سلطان لعبد على عبد، ولا سلطان لرب على رب. بل السلطان كله لوحدة الفطرة. لا يشغل مفردات الناس، ولا يشغل مفردات العقول، ولا يشغل مفردات النفوس، ولا يشغل مفردات الهمم إلا ما يعني صاحبها في ذاته وفي نفسه. يبدأ بنفسه، يحرص على نفسه، يعمل لصالح نفسه، بعقله هو، بتجربته هو، يستقيم وينحرف، ينهض ويكبو، يحسن الاتجاه ويلتوي، الله بالغ فيه أمره، لقد أعطى كل شيء خلقه، وجعل فيه هديه وحسابه ومعراجه وهاويته، وعوامل بقائه وعوامل فنائه.

إن الإسلام كدين لفطرة هو المعرفة، هو كشف القناع عن معرفة الكائنات بكينونتها، والأشياء بشيئيتها، في المدى القصير أو الطويل، للتطور بأطوارها وفي الزمن الطويل لدوام قيامها بذواتها ومعانيها في غناء الله عن العجلة بسر دوامه، وبإحاطة الله بقدرته على الأشياء إلى ما يريد وما يشاء. وما إرادة الله إلا إرادة الكائنات وما مشيئة الله إلا مشيئة الأشياء على ما كانت هذه الكائنات إن كانت، وعلى ما شاءت هذه الأشياء إن شاءت، وإن بدت الكائنات والأشياء فيما عملت أنها قد أتت عملها خبط عشواء أصابت أم أخطأت. فغناء الله عن العالمين أعطى العوالم حريتها فيما تريد إلى ما تريد.

هذه الفطرة تبدو ولا سلطان لها علينا مدركا لنا في وحدتها إلا في سلطاننا نحن على أنفسنا. كما يبدو كذلك أن لا سلطان لنا عليها، إذ لا نستطيع أن نقوم منها سبيلا فسبيلها قائمة على ما هي، ولا نستطيع أن نقوم فيها أمرا فأمرها قائم دائما على ما هي كذلك. وهذا الأمر لا يشغلنا فيما هو خارج عنا ولا لغيبنا إلا بقدر ما يمس سلطاننا علينا في ذاته.

فإذا كانت الفطرة لا سلطان لنا عليها، فكذلك الإسلام كمجتمع فطري لا سلطان لنا عليه، ولا نستطيع أن نقيمه أو أن ننشره. ولكننا نستطيع أن ندخله ونقوم فيه. ونستطيع أن نترك له أنفسنا لينتشر فيها. نستطيع أن نقومه بأنفسنا لأنفسنا، إذ مظهر الإسلام كفطرة إنما هو المجتمع البشري بأسره، والجزء لا يحكم الكل.

أما الذي يعنينا أن نجتمع عليه، ونتحدث عنه، ونتواصى فيه، ونفيد منه، إنما هو الإسلام عقيدة وكتابا. ونحن في هذا الإسلام العقائدي إنما نتابع إنسانا منا ورسولا من أنفسنا، وعبدا من عباد الله بيننا، تواجد بيننا بذاته وبصفاته وما زال يتواجد بيننا بمصاحبيه ومتابعيهم، هو من نسميه محمدا ومن يتصف عندنا برسول الله، ومن تلوك ألسنتنا اسمه وتردد ذكر ربه، ترديد أسماء من نفتقد في حال فاقتنا، ومن نذكر في حال حاجتنا.

إن ترديدنا لاسم من نفتقد عند فقده لا يحضره. وإن ذكر ما نطلب عندما نحتاج لا يوجده. إذا شعرت بالعطش فرددت اسم الماء كما ترده الأنعام، هل أرتوي من ترديد اسم الماء فأشعر بالري في نفسي، فيبعد الظمأ عني؟ إذا أحسست بالجوع فرددت اسم الخبز، هل يرد هذا الاسم وأنا أرده غائلة الجوع عني؟ هل أشبع من ترديد كلمة خبز؟ أو ما يقابلها من أسماء الطعام؟!

إننا نذكر محمدا وربه كما يردد الريان لا الظمآن اسم الماء، وكما يردد المتخوم لا الجوعان اسم الطعام. إن ترديد الاسم لا قيمة له، ولا يقيم في الإنسان شيئا، ولكن المطلوب إنما هو الصلة بالمسمى، إنما هو القيام بالمذكور. كلما جاءهم ذكر محدث.. كلما جاءهم من يقوم بذكر الله من قيامه ذكرا لله، استمعوه لاهية قلوبهم، ظاهروه، انصرفوا إلى دنياهم وتركوه، انصرفوا إلى لهوهم، انصرفوا إلى تجارتهم، وتركوا ما عند الله، وتركوا ما عند الذكر المحدث علما على الله ووجها لله، ويدا لله لهم منبسطة، ووجها لله منبسطة أساريره، وحوضا لله فيه ماء الحياة، ومائدة من الله فيها ومنها خبز الحياة، لا يذكر لفظا ولكن يقيم في الناس حقا، يقومه ويقدمه، لا يطلب مقابلا، ويبذله كرما لا يطلب أجرا أو شكرا.

إن ذكر الله المحدث، إنما هو الإنسان، إنما هو عبد الله، إنما هو بين الناس.. من الناس.. ناس حقق الله فيهم ذكره، ورفع لهم ذكرهم من معنى ذكره المرفوع والموضوع فلا يُشارك رفيع الدرجات ممن رفع

من الناس ولكن يتابع ويعتقد ولا يحقد عليه. وكذلك رفيع الدرجات ممن وضع. وضع الله لذكره بيوتا، ورفع بذكره بيوتا، وأحيا باسمه بيوتا، وأفنى بقدرته بيوتا، وأعدم بحكمته بيوتا، وذكَّر بفضله بيوتا، وأعطى بمنته في البيوت غرفا، وجعل من الغرف قبلة استقبلها الناس مصلين، وطاف بها الناس حاجين على مدى الأزمان والدهور. فما ارتفع رفيع إلا من رفعه رفيع في الدرجات. وما داني مدان إلا كان في مداناته رفيعا.. كان رفيع الدرجات مدانٍ في مداناته كما كان رفيع الدرجات في تنزهاته. والإنسان في الرحمن والإنسان في الله هو رفيع الدرجات. والإنسان في رفيع الدرجات هو الدرجات. والإنسان في الدرجات هو كل ما فيها وكل ما لها من صفات.

الإنسان كل ذلك. هذا ما جاءت به العقيدة، رفعنا بعضكم فوق بعض درجات وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا. فمن كان ذكرا لله كان رفيع الدرجات. هذا ما جاء به الإسلام عقيدة. ولا يستقيم الإسلام عقيدة إلا إذا اعتقد المسلم في رسول الإسلام كل هذه المعاني له محققة.. إلا إذا اعتقد المسلم في رسول الإسلام أنه معطي ومهيئ لكل هذه المعاني بدوره، ومربٍ وخالق للإنسان المتابع له بكل هذه المعاني، فيطلب رسول الله، ويطلب في طلبه وفي اعتقاده به وجه الله، لأن وجه الله حق للمرسلين ونعمة للمرسل إليهم. إن الرسول هو الحق من ربهم وجها لله وقياما للحق به.

الناس يقومون به ويُبعثون به، ممتدين من روحه ونوره وهديه، فيكونون رسلا في مجتمعهم هم له وجوه حقه. وهو من ربه لهم وجه الحق منه. والناس بمتابعتهم له في متابعتهم لمن امتد فيهم بروحه ونوره، إنما يدخلون في صلتهم بربهم وربه في صلتهم به في بناء للحق متماسك. الصلاة عنده صلة بين العبد وربه، والصلاة عنده صلة بين الرب وربه، والصلاة عنده وعي عند العبد عن ربه في نفسه، وعن إلهه قائما على نفسه على ما يشهده فيه في نفسه، امتدادا من اشراقات وأنوار وفيوضات ربه معلوما له بوجهه مجهولا عليه بإحاطته.

إن الرب مدرك في الإسلام في إدراك الإنسان المسلم لمعاني الإيمان تطرق قلبه وحسه، وتشرق في وعيه وإدراكه، وتقوم في زكاة نفسه، وتُحيِي قائم جوارحه وأحاسيسه على صورة مدركة عنده، ومن مصدر لا يُجهله.

هذا هو الإسلام كعقيدة وهو ما نعتقده وهو ما نقوم فيه وهو ما نتواصى به. لا يتخذ منا بعضنا بعضا أربابا من دون الله فيه، بل نرى الله فينا في جماعنا، ونرانا في الله بجماعنا. نرى الله فينا بقدر ما يُظهر من صفاته. يظهرها فينا من استقامته ومن حِلمه ومن كَرمه ومن فعله، بإيثار له على أنفسنا أو بذل له في أنفسنا، ومن معرفته بنفسه، ومن علمه بكونه، وبترك للدنيا وزهد فيها على إحاطة بها، وطلب

للآخرة وعمل لها في مستقيم طريق إليها، في شوق للحقيقة وقيام بها. كل هذه الصفات إنما تقوم فينا معنونة معناها في الله من معناه في رسول الله، قائمة برسول الله بمعناه من ربه بربه.

إن الله عند المسلم له معارج يعرج فيها العارج إليه طلبا له حتى يلقاه. يطلبه الطالب بعقيدته، ويعرفه العارف بشريعته، ويوحده السالك بهمته، فيطلب الله روحا أعظم وذاتا أقدس عروجا إليه في معراجه.

إن المسلم من سلم الناس من لسانه ويده، وسلم هو من فتنة نفسه وطغيانها. إن المسلم من أسلم لله لا غيب له، ومن علم الله لا ظهور له.. إن الله وراء ما ظهر، وإن الله هو الظاهر فيما ظهر.. أينما نولي فوجهه - والله أكبر - إن انعكسنا في انفسنا فلا نرى إلا وجهه - والله أكبر - وإن تأملنا ببصيرتنا فيما حولنا لا نرى إلا وجهه - والله أكبر -.

هذه هي عقيدة المسلم إن استقام بالإسلام كعقيدة، وهي لب الإسلام. إن العقيدة هي اللب الذي يتجه بها المسلم إلى طرفي الإسلام فطرة ومجتمعا. اتقوا الله بالعقيدة يعلمكم الله بالفطرة، وكونوا عبادا لله في الفطرة يقومكم الله في المجتمع غرف وبيوت عقيدة وقبلة صلاة. لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها.

إن المجتمع في الإسلام يتكون من رجلين. إن المجتمع في الإسلام يبدأ من رجلين. إن الفطرة في الإسلام تبدأ من كائنين. تبدأ من كينونتين تمثلان في معنيين من رجل وامرأتين، أو من رجل بين أم وابنة. جعل المسيح وأمه آيتين، كما جعل مثله مثل آدم، كما وحد محمدا مع أمه وابنته في قوله - فاطمة ابنتي روحي وأم أبيها، كما وحد بين الزوجين، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن. {أن تقوموا لله مثنى وفرادى..}[1] .كما تمثلان في أخ وأخيه من رجلين. واضرب لهم مثل الرجلين، واضرب لهم مثل ابني آدم بالحق.. ولدان لآدم.. أخوان في آدم.. صديقان في أبوة أو عدوان في أبوة، وكذلك أب وولده أو ولد وولده أو والد ووالده.. يتزاحمان على معنى في الأبوة أو على صفة من الأبوة، على حقيقة من الأبوة، بهما يتكون مجتمع فطري في الإسلام، مجتمع من رجلين وجه للقديم من القديم، ووجه للباقي من الباقي كلقمان وولده، حكيم وولده الحكيم، وإبراهيم وأبوه، ثم إبراهيم وبنيه.. ناصح بدأ بنفسه فانتصح، وبدأ بولده أو لوالده لينصح فتناصح، فتكون منه المجتمع الفطري في الإسلام متوحدا متحدا، أو منشقا منفصلا. من هذه النواة في الإسلام يتواجد المجتمع وينتشر وينمو كوحدة لمجتمع.

فإذا لم يكن الإسلام كعقيدة منبها لمفردات الناس أن الله قائم على هذه المفردات، على كل نفس بما كسبت وأقرب إليها من حبل الوريد، أينما كانت وكيفما كانت فلا تسليم ولا إسلام.

فإذا تنبه الناس إلى ذلك فعملوا فيه أخوة متناصحين ليكونوا من أخوتهم مجتمعا متماسكا، قاموا فيه بيتا واحدا ليكونوا من بيوتهم - تتعدد وتتلاحق - بيتا أكبر ومجتمعا أوسع، وتناصحوا فيه آباء في أخوة، وأبناء في أخوة ليكونوا برباط المحبة بعد رباط الطبيعة والفطرة إخوانا يتكون بهم مجتمع في فطرة الله، فلا إسلام ولا اجتماع عليه.

إذا لم يكن للناس تواصي برباط العقيدة على ما أرادت العقيدة، وهدي رسول العقيدة، وهدي المعتقد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، فلا إسلام ولا مسلمون.

إن الذي فرق وجمع في قانون فطرته جعل الإنسان من صبغته. فإذا لم يصل به أهل العقيدة إلى ذلك لا تسلم العقيدة لأهلها، وإذا لم تسلم العقيدة من الشوائب لم تصلح امتداداتهم في الفطرة من الرواسب. واقتضت قوانينها فرقا جديدا لجمعهم.

إن الناس يريدون مجتمعا إسلاميا وهو أمر لا يتعذر عليهم في ظل العقيدة السليمة {ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير..}[٢] فلهم أن يوجدوه في أنفسهم وأزواجهم وأولادهم ومن يعولون من أهلهم وبيئتهم. إن هذا لا يمتنع على مفردات المسلمين إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. ولكن المسلمين يخطئون الفهم لدينهم فيخطئون المسلك والطريق إليه ويختفي الباب وتجهل القبلة والبيت، فيسيرون في صحراء جرداء لا يدركون لهم فيها طريقا إلى واحة غناء بالزرع وعيون الماء ويهتدون فيها بنجم يفني عنهم ظلمة الليل السرمد، يدخلون البحار الزاخرة للحياة لا حدود لها ولا سفينة ولا ربان لهم. فكيف يصلحون؟ وكيف بهم يمكن أن يصلح غيرهم؟ وكيف يقومون روادا للحياة بالحق؟ وكيف يقام بهم لله حق وهم مع ذلك - وهذا ما هو أدهى - يزعمون أنهم المسلمون، وأنهم يمثلون الإسلام، وهذا الزعم هو الحائل الجبار بينهم وبين الإسلام ومجتمع الإسلام؟

إنهم يطلبون ما أوجده وجود محمد بينهم بالحق، وما قام به محمد من الحق فانتشر به الحق فتجمع به الإنسان، فكان المحمد من ذاته والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم. إن المسلمين أو أدعياء الإسلام - بتعبير أصح - يطلبون الآن هذه النتيجة من الشدة على الكفار في نظرهم ممن يستعمرونهم ويسلطون عليهم بظلمهم لأنفسهم، وينسون حتى أن يقيموا أولا بينهم معاني الرحمة فيكونوا رحماء بينهم.. إن شدتهم على الكفار ما أعطيت لهم إلا لأن مجتمعهم قام بالرحمة بينهم حتى إذا ما دخل الكافر فيهم بإسلامه كان له بينهم ما لهم وعليه ما عليهم. وبذلك يعنونون الحق ويقيمون ساحته، ويعنونون الرحمة، ويعنونون جمال الفطرة. وجمال الفطرة في وحدة المجتمع بانتظام العقيدة والطريقة. كيف يقوم مجتمع إسلامي لا محمد له، ولا قبلة له، ولا علم له، ولا إمام له، ولا أسوة ولا قدوة له؟

ولكن الإنسان خلق عجولا، إنه يطلب النهاية والغاية قبل أن يحقق أصول البداية، وقبل أن يسلك إليها طريقها ويتوسل لتحقيقها بوسيلتها. إذا قلت له أُذكر الله في نفسك، كما يذكر أهل الله الله في أنفسهم، التوى به الوعي والنفس فوهم وزعم أن أهل الحق يقولون إن الله قد حل بهم، وهذا أمر وهمي خيالي لا تسنده حقيقة...

إن المعاني وراء الألفاظ هي التي تحكم السلامة للمعاني والحياة للألفاظ أو تقرر الملامة على المعنى الخاطئ. أما الألفاظ في ذاتها فإنها لا تعطي شيئا ولا تحدد أمرا ولا تدين مدانا بخطأ. إذا قلنا إن الله فيكم - وهو فيكم - أو إذا قلنا إنكم في الله - وإنكم في الله - فهذا أمر عند أهل المعرفة والإيمان أمر بديهي وأولي، ولكنكم تزعمون أن هذا أمر خطير أو فكر عميق وأن الناس لا يصلحون لأن يقال لهم ذلك، ويتجاهلون أنه سبق أن قيل لهم، وصلحوا له بعد معارك، ويأبى الناس إلا أن يكرروا هذه المعارك مع تكرار القول، كلما اقتضى الأمر التكرار لمحو الظلام بصوت النور.

سبحان الله! الناس في واقع ووجود يتأهلون للعلم به. إنه الواقع وليس العلم. إن العلم لا ينشئ جديدا على الواقع. إذا قيل لكم أنتم في الله والله فيكم، فهذا ليس علما به تتعلمونه، ولكنه الواقع إن شئتم أقمتموه بكشفه فنموتموه بإيمانكم وعملكم، فإنه قابل لأن يتكشف لكم. وإن شئتم أنكرتموه على أنفسكم فإنكم بعملكم تحرمون كشفه. وتأتي سكرة الموت بما كنتم عنه تحيدون، وقد أوجدتم أنفسكم من عملكم بما كان من الحق بكم على صورة غافلة هي أنانيتكم بالإنكار والغفلة، فتتعرفون عليها بما كان من الحق بكم تخلى عنكم فتندمون وتتعذبون وتذوقون العذاب ألوانا. وما أشد العذاب إلا إدراككم لهذا الذي فقدتم والذي لا تستطيعون أن ترجعوه إلى أنفسكم. لا، لا تستطيعون أن ترجعوا أنفسكم إلى هذه الحياة مرة أخرى بإرادتكم. ليس هذا في مكنتكم ولن يكون في مكنتكم، ولكنه في مكنة الله بقوانينه، إن شاء فعله ووقتما يشاء، وإن شاء لم يفعله، وقد وعد أنه يفعله لمن يشاء مرجعا عظامه مسويا بنانه. إنه قد يعيدك إلى هذه الأرض بلون جلدك وبارتفاع قامتك وبعدد مسامك وتقاطيع وجهك ورسوم بصمتك من بنانك. وقد يعيدك باسمك وقد يعيدك بأنانيتك ولا شيء من ذلك...

ولكن متى؟ لا تدري. ولكن أين؟ لا تدري. هذا في مكنة الله ويجب أن يعتقد الإنسان في مكنته وأنه عليه لقادر وأنه يوم يفعله، فإنه فاعله على مثال من قيامك اليوم عليها. تأمل كيف تواجدت اليوم؟ ألم تتواجد بالميلاد من أب وأم؟ ألم يقل لك إنك كنت روحا مخاطبا قبل مجيئك؟ إنه يوم يعيدك لن يعيدك إلا مولودا من أبوين كما هو مقيمك الآن. ألم يقل لك إنه كان لك وجود قبل هذا الإيجاد حمل صورتك واسمك ومعارفك، وقصة حياتك في وجودك الآن؟ ما تواجدت الآن إلا مبرزا من قديم وجود لك، وجودك اليوم إنما هو إبراز لوجودك القديم. وإن الله في قابل لمبرزك بما

كتبت اليوم وكسبت اليوم وبما أردت اليوم، وبما أجبت به اليوم لدعوة العقل والضمير، ومحقق لك - ما صدقت - ما افتقدت اليوم مما أردت أن تكون فيه به، وتود لو كان لك في وجودك مما تعشق وتحب وهذه هي جنتك.

إنك تكتب اليوم بقلم القدرة في ألواح كتاب الله في أم الكتاب عندك مستقبل كائن إنساني يبرزه الله على هذه الصورة ولهذه الصفات المنطوي عليها ضميرك الإنساني.. إنك تكتب هذه الصفحة لكائن يبعث يوما ما بها، بما أردت. (يُبعث المرء على ما مات عليه)[٣].

إن الذي كان منك مشهود اليوم بما أنت فيه، وهو ما سيكون يوما لك بما منك يكون. تجاهل حاضرك بما تكره، وتجاهل ماضيك بما تعقل من مراد لك فاتك في يومك، وانشد الكمال في مراد لك من الله مع مثال يرضيك، تحتذيه فيحتويك، وعلى مثاله يعيدك وينشيك، ترتضيه ويرتضيك. ابدأ معه حياة الغد من اليوم لا تؤمن بماضيك ولا تكرره بإصرارك على ما أنت فيه ولا بحاضرك، فتكتب مستقبلك على ما أنت عليه مما تستهويه، ولكن آمن في مستقبلك واعمل له فإن كل كمال من الله - وإن تحقق لك - فعند الله ما هو أكمل منه، فانتظره وارتجيه، واتخذ لك مثالا تحتذيه، وارضه لنفسك وتابعه على ما لنفسه ولك يرتضيه.

هذا ما جاءنا به الإسلام عقيدة {لكم في رسول الله أسوة}[٤]. وهذا ما يجب أن نتواصى به معا ونتذاكره معا. لا سلطان لنا على مجتمع ولا سلطان لنا على فطرة. ولكننا بين يدي الفطرة والمجتمع بين يدي رحمته. يشغلنا أمر أنفسنا فيه وأن ننمو فيها بحقائقه، ونزيد بالمعرفة فيه في المعرفة عن أنفسنا، وبالمعرفة عن أنفسنا معرفة عنه فيه.

هذا دين العقيدة. وهذا ما نرجو أن نتواصى دواما فيه بالحق ونتواصى فيه بالصبر، وأن لا نتعجل فيه، وأن يأخذ بعضنا بيد البعض فيه مهما كانت عدتنا، فإن ذرات من القلوب عند توحدها تكون لله كتابا مرقوما وكرسيا منصوبا مرموقا. إننا إذا توحدنا وتمسكنا بطريقنا فقمنا بالله وقد أقام الله الحق بيننا بروحه فإن الله يقيم بنا حقه، فنشهد الله معنا والله أكبر. هذه هي عقيدتنا وهذا هو الإسلام.

نسأل الله أن يجعل من محمد لنا، بقيامه علينا حظا نشهده به، وحقا نقومه به، وحقا به ننشره في الناس. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

اللهم ادفع عنا شرور أنفسنا وشرور الأشرار من خلقك. اللهم جنبنا الفرقة والخصام وارزقنا الألفة والوئام. اللهم أنزل سكينتك على قلوبنا والسلم والسلام على أرضنا. اللهم وحد قلوبنا، وزكي نفوسنا، وأنر عقولنا، وقوم جوارحنا، وقوم جماعتنا وجمعنا. اللهم أقم حقك فينا وانشره بنا. اللهم فرج كروب

المكروبين وعسر المعسرين وضيق التعسين، وارزقنا الحرية في كوننا من كونك في كونك، وأعتق رقابنا من النار، واجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك.

أضواء على الطريق

- أُعبد الله كأنك تراه، فإن لمن تكن تراه. فإنه يراك.
- الله قائم على كل نفس بما كسبت وأقرب إليها من حبل الوريد ومن ورائها محيط.
- كل من عليها فان ويبقي ممن عليها من كان وجها لله.
- يرث الله الأرض ومن عليها يوم يرثها عباد الله الصالحين.
- يبدل الله الأرض غير الأرض والسموات، يوم يقوم على الأرض أمر الله الذي لم يقبله الناس لأنفسهم مثلهم الأعلى ثم زعموهم فيه، وزعموه لهم على سفور منه وعلى قبول واضطرار منهم.
- الجنة التي عرضها السموات والأرض مفتحة على دوام، والدخول فيها والخروج منها، قائم على دوام.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة سبأ - ٤٦
٢ سورة آل عمران - ١٠٤
٣ حديث شريف: "يُبعث كل عبد على ما مات عليه." أخرجه مسلم
٤ سورة الأحزاب - ٢١